عبد السلام البسيوني

هل ستسقط الأمة العربية المسلمة؟

عوامل سقوط الحضارات في القرآن والسنة

من الهدي الرباني:

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له)

وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد)

(وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم)

والعاقبة للمتقين

وقال صلى الله عليه وسلم:

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالهم أو خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله تعالى، وهم على ذلك)

الإهداء:

إلى الذين قتلوا ظلمًا بأيدي صهاينة الخارج أو صهاينة الداخل

إلى الذين استشهدوا بأيدي جلادي الخارج أو الداخل

أبشروا (وما كان الله ليضيع إيمانكم)

(ولن يتركم أعمالكم)

مقدمة وجيعة:

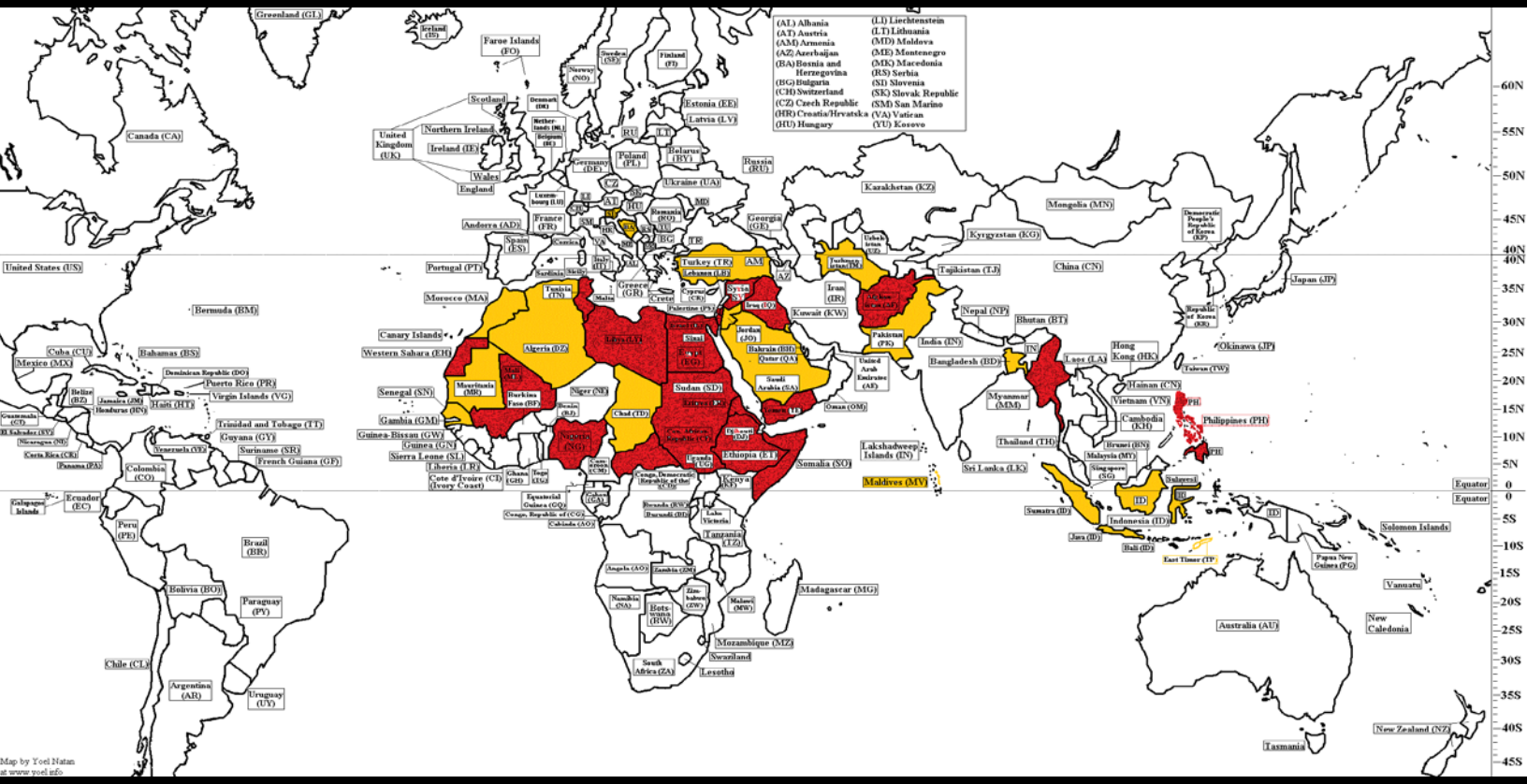

هذه قراءة للواقع، دون مبالغة، ولا تيئيس، ولا تبسيط، ولا إرضاء لعاطفة ساذجة، تريد أن تمرر الأمور، دون أن تتعمق فيها لتصحو على دين يُنقض، أو رأس تقطع، أو عرض يستباح، أو كرامة تخنق، أو حرة تشنق، أو قطعة تسرق.. وما علينا إلا البلاغ المبين!

لو تأملت قارئي العزيز المناطق الملونة بالأحمر لتأكدت أنها هي بلاد العالم الإسلامي التي خطط الغرب لتدميرها، وقلبها رأسًا على عقب، والملونة باللون البرتقالي هي المرشحة التالية للتدمير، أو التغيير، أو التقسيم.. قل ما شئت، بحجج كثيرة مفتعلة: أمن إسرائيل/ أسلحة الدمار الشامل/ القاعدة/ داعش/ الإرهاب/ بوكو حرام/ السلفية الجهادية/ الإخوان....إلخ.

المبررات كثيرة، والنتيجة واحدة: حرب صليبية علنية، مهمتها التدمير الكامل لكل البلاد، بحيث لا تنهض ولو بعد خمسين سنة، وذلك عن طريق:

- **إعادة رسم الخارطة العقدية بتدمير أهل السنة في العالم العربي، وإقامة كيانات شيعية رافضية عديدة، ورفع الروافض، والمذاهب الهدامة الأخرى، والتمهيد لدولة نصرانية أرثوذكسية كبيرة في مصر، وتسريع إعلان الدولة الصهيونية من النيل للفرات!**
- **إعادة رسم الخارطة العرقية، بإقامة كيانات عربية، وكردية، ونوبية، وأفريقية، وأمازيغية، وغيرها.**
- **تفتيت الدول الكبيرة إلى كيانات أصغر، وهذا منشور علنًا من سنين، بتقسيم الجزيرة العربية، والعراق وسورية، ومصر، والسودان، وغيرها.**
- **التوطئة الواضحة لهدم الأقصى، وإقامة الهيكل، وتمحيض أرض فلسطين لليهود.**
- **تدمير المساجد، والمدارس، والجامعات، والمستشفيات، والطرق، والمرافق العامة، والمباني، وقتل أكبر عدد ممكن من البشر، وتشريد المتبقين، وتفريقهم أيادي سبأ، بحيث لا يكون للبلاد قوة اقتصادية ولا عسكرية، ولا علمية، ولا دينية، ولا حضارية، ولا حاضر ولا مستقبل!**

ولو تأملت كم الفساد السياسي، والخيانات، وسقوط أقنعة الخونة، وتجار الأوطان، وسماسرة السلاح، وفجرة الإعلام، ولعبة الأحزاب الكرتونية – على مستوى الأمة – لعلمت كيف خطط أعداء الأمة من عقود بعيدة، وكيف نجحوا بالتخطيط، واستخدام الخونة، والمرتشين، والانتهازيين.

ولو تأملت كيف تصرف الفراعين الجدد بعد الخمسينيات في العالم الثالث، ثم كيف فعلوا بعد تهديد كراسيهم في سوريا والعراق ومصر وليبيا والسودان وتونس وغيرها، لرأيت إلى أين تسير الأمم وفق سياسات الذين يخربون بيوت قومهم بأيديهم وتواطئهم!

ولو تأملت كم الجوع والفقر والقهر والخوف في بلاد المسلمين لرأيت حجم الجناية على الإنسان المسلم السني، وحياته، وعقيدته، ومستقبله دنيا وأخرى.

ولو رأيت خيانات المؤسسات الدينية والإعلامية والثقافية والفنية في العالم العربي لتأكدت أن أعداء الأمة كانوا يدقون المسامير في نعش الأمة من زمن بعيد، في غفلة عن الأحرار والشرفاء وأهل الغيرة والمروءة، وبمواطأة أهل الخيانة والفساد في الداخل.

ولو رأيت صلف الباطل، وانتفاشه، وتجبر فراعين الخارج، وجرأتهم على التصريح بمخططاتهم دون مواربة لعلمت كم بلغت تفاهة حجم هذه الأمة وهوانها.

فما المنتظر في المرحلة القادمة لأمة يستمتع اللصوص والقتلة والقوادون في سحب دمائها، وتقطيع عروقها، وإزهاق روحها، وأبناؤها بين مصفق لقاتليه، ومهيئٍ للذبح عنقَ أخيه، ومرشدٍ يدل على عورات أهليه، وفاسدٍ لا يبالي بهتك عرض أخواته وجاراته ومن يليه!؟

وهل هذا نذير بنهاية ما يسمى بالأمة العربية، وتهاويها؛ رخيصة، بأيدي أعدائها وأيدي بنيها؟!

وهل هذا وارد في سنن الله التي لا تحابي، ولا تجامل؟!

ولم لا؟ ألم تسقط دول إسلامية كثيرة من قبل؟ فلماذا لا تسقط هذه؟ ألم تسقط الأندلس، وتسقط جمهوريات في آسيا الوسطى وأوربا الشرقية عقودًا طويلة؟

ألم تكفر روسيا الحقود الجمهوريات الإسلامية سبعين سنة؟ وتكفر ألبانيا مثلها؟ ألم يكفر تيتو منطقة البلقان؟

ألم تكفَّر دول كثيرة في أفريقيا كانت تكتب بالحرف العربي، وتدين بالإسلام، فتقلص مسلموها من مائة بالمائة إلى خمسة وعشرة بالمائة؟

فلماذا لا يحصل ذلك في هذه المنطقة التعيسة، التي فقدت مقومات النهوض: دينيًّا، وأخلاقيًّا، وحضاريًّا!؟

لست متشائمًا، ولكنني أعلم أن سنن الله تعالى لا تحابي، وأن الأمة إذا باعت دينها وقيمها، وخانت نفسها، كانت غير جديرة بالبقاء! فتعالوا نر ماذا قال ربنا تبارك وتعالى في ذلك!

مسلَّمات وفرضيات:

في مدخل هذه الدراسة القرآنية لسقوط الأمم، دعني قارئي الحبيب أضع بعض المسلمات والفرضيات، لعلك تقبلها مني؛ ثم أبني عليها ما سيلي:

أ. المسلَّمات:

أقصد بالمسلمات: البديهيات التي لا تقبل الجدل، أو الحقائق المقررة، التي لا تحتاج إلى إقناعٍ؛ بسب مصدريتها، أو وضوحها الشديد.

- أن الفساد في العالم الإسلامي ضرب أطنابه، وعشش، وباض، وفرخ: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ، لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* قُلْ: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ* فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ؛ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ؛ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) الروم 41–43.

- أن ما بنا من بلاء ونوازل شديدة إنما هو بسبب من ذنوبنا، ومعاصينا الظاهرة، والبعد عن منهج الله تبارك وتعالى، الذي قال لنا: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير* وما أنتم بمعجزين في الأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) الشورى:30–31. ومما ينسب لسيدنا العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه: (ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة)...

- أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية ما لم يبدلوا نعمة الله كفرًا، وطاعة الله هُجرًا، وشكر الله أشرًا وبطرًا: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد:11..

- **كتب الله تعالى على الجيل الكنود، المنبطح، الموالي، المحاد لله ورسوله أن يستبدل الله تعالى به غيره؛ إذ يقول ربي تبارك وتعالى: (وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم (محمد:38) ويقول تبارك وتعالى: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ؛ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) المائدة:54.**

- **يستحيل أن تكون الأمة كلها فاسدة، لكن العبرة بالكثرة، فإذا كان الفساد غالبًا فيها، هلكوا جميعًا: يقول تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) الأنفال:25، وفي البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أم المؤمنين زينب رضي الله تعالى عنها التي سألت النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دخل عليها فَزِعًا يقولُ: يا رسولَ اللهِ: أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كَثُرَ الخَبث)!**

- **هناك أمم عمياء تحب الذنب والقهر، وتعنو للفراعنة وتسبح بحمدهم: كمصريي فرعون الذين قال لهم الغبي إنه الله – تعالى – فسجدوا له وعبدوه: (فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قومًا فاسقين) الزخرف:54.**

- **وهناك أمم عمياء تحب الانحراف والفساد، وتحيد عمدًا عن دين رب العباد: كالذين استحبوا الكفر على الإيمان: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فصلت:17/**

ومن عماها لا ترى الحق حقًّا وإن كان أمام عينيها: (فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم؛ قالوا: هذا عارض ممطرنا؛ بل هو ما استعجلتم به: ريح فيها عذاب أليم* تدمر كل شيء بأمر ربها..) الأحقاف:24–25..

ومن عماها تحب المعصية وتستبيحها جهرة: (قالوا: ما لنا في بناتك من حق، وإنك لتعلم ما نريد) هود:79..

- **وحق على من كان كذلك من الأمم، أن يدمرها الله تعالى: (وما هي من الظالمين ببعيد) هود:83، (أمَّرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول، فدمرناها تدميرًا) الإسراء:16.**
- **أن التقوى عاصمة من بطش الله تعالى، جالبة لرحماته وخيراته: يقول تبارك وتعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الأعراف:96.**
- **أن طائفة من أهل الحق ستبقى ظاهرة محيية للدين ليوم الدين، لا تبالي إن تجمعت الدنيا كلها عليها، ولا تخاف إلا ربها رب العالمين، ففي البخاري عن سيدي المغيرة عن سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهرين، حتى يأتيَهم أمرُ اللهِ وهم ظاهرونَ)! ونصه في مسلم، عن سيدي ثوبان رضي الله تعالى عنه يقول سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرينَ علَى الحق، لا يضرهم من خذلَهُم، حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وَهُم كذلِكَ)!**

ب: الفرضيات:

أقصد بالفرضيات: الآراء التي أسوقها جدلًا لمناقشتها، ومحاولة إثباتها؛ من خلال الاستنارة بآرائكم، وتعقيباتكم.

- **هناك نوع من تكالب الأمم علينا، لا يخفى، توضحه الخارطة السابقة، فقد جمع حلف الناتو NATO قواه، تقوده أميركا وإسرائيل، في حرب صليبية واضحة – ولو لم نملك الجرأة لقول ذلك – للإجهاز على أمة لم يتمكن الغرب من الإجهاز عليها خلال خمسة عشر قرنًا، وقد قال سيدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما في صحيح سنن أبي داود وغيره عن سيدي ثوبان رضي الله تعالى عنه: (يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأَكَلةُ إلى قصعتِها)! فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءُ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ). فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: (حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ)!**

ولا يخفى تداعي الناتو الأميركي الصهيوني مع روسيا والصين، والأنظمة الخائنة،

وكارهي الإسلام من الداخل العميل!

- **المستهدف الإسلام السني: فهناك دعم غربي للتمدد الرافضي حول العالم على حساب العقيدة السنية، وإيران تستخدم مال بترولها، وتواطؤ مناطق بترولية أخرى معها، في التوسع، وشراء إعلاميين و(مسقفين) وفنانين، ومشايخ زور، وصوفية، وعوام مرتزقة، لدعم مشروعها الرافضي الكبير، بجانب دعم النحل المنحرفة: الصوفية الغالية، والعلويين، والدروز، والبهائيين والقاديانيين.. إلخ.**

- **هناك نوع من الإحياء الأصولي الغربي، وظهور تيارات دينية غربية عنيفة، لا تعرف من الإسلام إلا أنه عدو للحضارة، وللنصرانية، وأن عليهم أن يهيئوا لعودة المسيح الأخيرة، وأن يقيموا الهيكل! يقود هذه التيارات عدد من الساسة والقساوسة المتطرفين، والحاخامات الصهاينة، ومجموعات الضغط في أوربا وأميركا.**

- **يتم التهيئة في المنطقة لإعلان إسرائيل الكبرى خلال بضع سنين من النيل للفرات، بإشراف أميركي غربي إسرائيلي عربئيلي، وسيسقط الأقصى، ويقام الهيكل، بعد إسقاط العراق وسوريا ومصر، وإتمام خنق غزة، وسيفرح العالم الأصولي الغربي بقرب ما يسمونه عودة المسيح الثانية، وسيرقص الإعلام العربي مبتهجًا، ويلبس القساوسة المحليون البياض، وسيواجه كل معترض بالاستئصال والإبادة.**

- **سيتم تقسيم المنطقة حول إسرائيل لدويلات؛ على أساس ديني وعرقي وفق مخطط برنارد لويسَ المعلن من سنين.**

- **إن لم تفق الأمة فإنها معرضة لاستئصال واسع: قد يكلفها عقودًا من الزمن، وأجيالًا من البشر، وتريليونات من الأموال، وجهودًا مضنية لاستعادة بعض ما كانت عليه، كما أن الشقة بينها وبين الحضارة المعاصرة ستزداد وتتعمق، لتعجز بعد ذلك عن اللحاق بها،**

- **يتقن القوم فن استحداث المبررات لإقناع العالم بشرعية تحركاتهم، وتبرير جرائمهم الشاملة، واستخدام كل الأسلحة المادية والمعنوية، للوصول إلى مبتغاهم! وهم الذين استحدثوا فزاعات: الشرعية الدولية/ أسلحة الدمار الشامل/ التطرف الإسلامي، ليقولوا – للغربيين خصوصًا – إنهم محقون في ضرب أولئكم.**

- **يتقن القوم صناعة كيانات مشبوهة، يبنون على تضخيم أثرها تصرفاتهم: القاعدة، وداعش، وبوكو حرام، والسلفية الجهادية، وفزاعة الإخوان الوهمية... إلخ!**

فقه الموضوع:

- **الله تعالى أمرنا أن نتأمل سننه في الأمم والحضارات، وأسباب قيامها وسقوطها:**

يقول تبارك وتعالى: (قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين* هذا بيان للناس، وهدى، وموعظة للمتقين) آل عمران 137–138.

ويقول عز من قائل: (أفلم يسيروا في الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج:46.

ويقول سبحانه وتعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ* وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) الفجر:60–13.

- **الله تعالى لا يظلم:**

تعالى ربنا عز وجل عن الظلم وأسبابه: وهو سبحانه القائل: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) هود:117، وقال تبارك وتعالى عن الظلم: (إن الله لا يظلم الناس شيئًا؛ ولكن الناس أنفسهم يظلمون) يونس:44.

وفي مسلم وغيره عن سيدي أبي ذر رضي الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّهُ قال: (يا عبادي! إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي وجعلتُه بينكم محرَّمًا؛ فلا تظَّالموا...).

- **الله تعالى لا يغير من حالٍ حسنى لحالٍ سوأى إلا إذا تغيرت قلوب الأمة:**

يقول الله تبارك وتعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ؛ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الأنفال:53.

ويقول سبحانه: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد:11.

- **الأمة معرضة للخطر حتمًا، بنص القرآن والسنة:**

يقول الله تعالى: (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) البقرة:217،

وفي صحيح سنن أبي داود عن سيدي ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا: (يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأَكَلةُ إلى قصعتِها). فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ ؟ قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءُ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ). فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال: (حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ)!

- **الأمة مرشحة للزوال، واستخلاف غيرها، إذا استمرت على ما هي عليه:**

وفي هذا المعنى يقول ربي سبحانه: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) المائدة:54،

ويقول عز من قائل: (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) محمد:38.

- **هل يمكن أن تهلك الأمة وفيها دعاة وأناس صالحون؟**

ففي صحيح مسلم عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثُر الخبثُ)!

وفي صحيح الجامع، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعًا: (إنَّ اللهَ تعالى إذا أنزل سَطوتَه على أهل نِقمتِه، فوافَتْ آجالَ قومٍ صالحين، فأُهلِكو بهلاكهم، ثم يُبعثُون على نيَّاتهم وأعمالِهم).

وفي صحيح الجامع، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعًا: (يغزو جيشٌ الكعبةَ، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ يُخسفُ بأوَّلِهم وآخرِهم). قالت: قلت: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يُخسفُ بأولِهم وآخرِهم، وفيهم أسواقُهم، ومن ليس منهم؟ قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (يُخسفُ بأولِهم وآخرِهم، ثم يُبعثون على نيَّاتِهم)!

- **هل تهلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن آخرها؟**

لقد أعطى الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ألا تفنى الأمة كلها، ولكن تبتلى كلها؛ ففي عارضة الأحوذي، بسند حسن صحيح، عن سيدي خباب رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صلاةً فأطالَه، فقالُوا: يا رسولَ اللَّهِ: صلَّيتَ صلاةً لم تَكن تصلِّيها!

قال: (أجَل إنَّها صَلاةُ رغبةٍ ورَهبةٍ؛ إنِّي سألتُ اللَّهَ فِيها ثلاثًا، فأعطاني اثنتينِ، ومنَعني واحدَةً: سألتُه ألا يُهلِكَ أمَّتي بسَنةٍ فأعطانيها، وسألتُه ألا يسلِّطَ عليهم عدوًّا من غيرِهِم فأعطانِيها، وسألتُه ألا يذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ فمنَعَنيها)!

وسيستمر اللدد والخصومة حتى قيام الساعة، ففي صحيح مسلم عن سيدي يسير بن جابر قال: هاجت ريحٌ حمراءُ بالكوفةِ، فجاء رجلٌ ليس له هجيري إلا: يا عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ : جاءت الساعةُ، قال فقعد – وكان مُتَّكئًا – فقال: إنَّ الساعةَ لا تقومُ حتى لا يُقسَمَ ميراثٌ، ولا يُفرح بغنيمةٍ. ثم قال بيده هكذا (ونحاها نحو الشامِ) فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلامِ ، ويجمع لهم أهلُ الإسلامِ. قلتُ: الرومَ تعني؟ قال: نعم. وتكون عند ذاكم القتالِ رِدَّةٌ شديدةٌ.

فيشترطُ المسلمون شُرطةً للموتِ لا ترجعُ إلا غالبةً ، فيقتتِلون حتى يحجزَ بينهم الليلُ. فيفيءُ هؤلاءِ وهؤلاءِ؛ كلٌّ غيرُ غالب، وتَفنى الشرطةُ!

ثم يشترطُ المسلمون شرطةً للموت لا ترجع إلا غالبةً ، فيقتَتِلون حتى يحجزَ بينهم الليلِ ، فيفيءُ هؤلاءِ وهؤلاءِ، كلٌّ غيرُ غالبٍ، وتَفنى الشُّرطةُ!

ثم يشترطُ المسلمون شُرطةً للموتِ ، لا ترجعُ إلا غالبةً . فيقتَتِلون حتى يُمسوا ، فيفيءُ هؤلاءِ وهؤلاءِ كلٌّ غيرُ غالبٍ، وتَفنى الشُّرطةُ!

فإذا كان يومُ الرابعِ نهَدَ إليهم بقِيَّةُ أهلِ الإسلامِ ، فيجعل اللهُ الدَّبرةَ عليهم . فيقتلون مَقتلةً – إما قال لا يُرى مثلُها ، وإما قال لم يُرَ مثلُها – حتى إنَّ الطائرَ ليمرُّ بجنباتِهم ، فما يُخلِّفُهم حتى يخرَّ ميتًا ، فيتعادَّ بنو الأبِ، كانوا مائةً ، فلا يجِدونه بقي منهم إلا الرجلُ الواحدُ ! فبأي غنيمةٍ يفرح؟ أو أيِّ ميراثٍ يقاسمُ؟ الحديث!

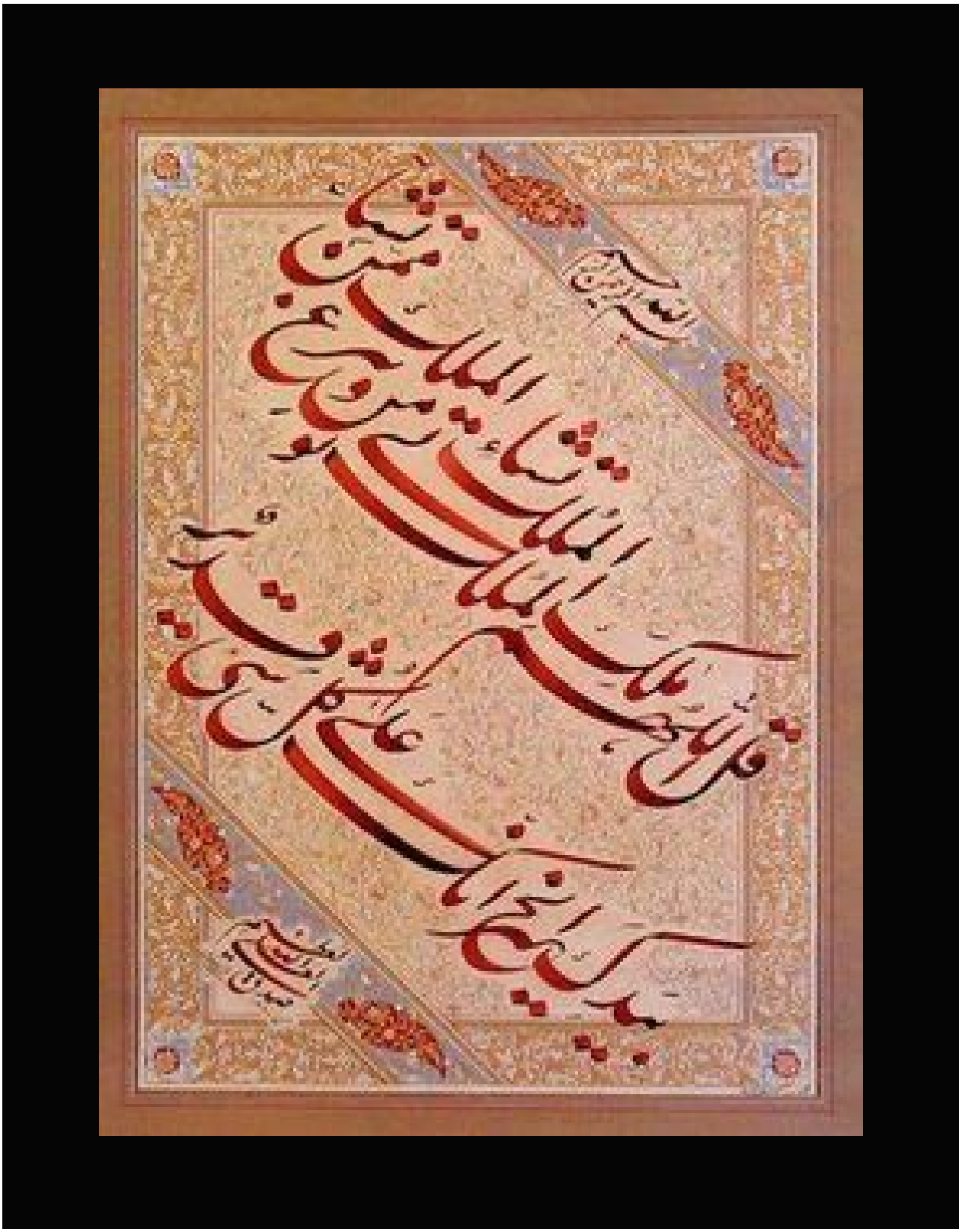

سنن إلهية في إسقاط الحضارات:

- **من سنن الله تعالى أن تسقط الدول والحضارات: وهي في عز عتوها وتجبرها:**

يقول الله تبارك وتعالى: (....حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا – ليلًا أو نهارًا – فجعلناها حصيدًا؛ كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) يونس:24.

ويقول عز من قائل: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد* إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة....)! هود:102–103.

- **من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أن الله تعالى يستدرجها حتى يجري عليهم سننه:**

يقول تبارك وتعالى: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم؛ إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا، ولهم عذاب مهين) آل عمران:178.

ويقول عز شأنه: (...وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً؛ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الأنعام: 43–45.

ويقول تبارك وتعالى: (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم؛ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق أنفسهم وهم كافرون) التوبة:55.

ويقول تعالى جده: (فذرهم في غمرتهم حتى حين* أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين* نسارع لهم في الخيرات؟! بل لا يشعرون)المؤمنون:54–56،

- **من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أنه تعالى ينذرهم الهلاك قبل وقوعه:**

وذلك كما فعل هود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام، حين أنذروا أقوامهم بوقع العذاب إن لم يعجلوا بالتوبة؛ يقول الله تعالى: (ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ، وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) الأنعام:131،

ويقول تعالى: (وجاءكم النذير) فاطر:37.

وكذلك أنذر محمد صلى الله عليه وسلم معاندي قومه: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فصلت:13.

- **من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أن يدمرها ساعة راحتها وأمنها:**

يقول تبارك وتعالى: (وَكَمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا، فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا، أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) 4.

ويقول سبحانه: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى، وهم يلعبون* أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) الأعراف:97-98

- **من سنن الله تعالى أن تكون النخب المترفة سببًا مباشرًا لإسقاطها:**

وفي هذا المعنى يقول تعالى: و(كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا؛ لِيَمْكُرُوا فِيهَا) الأنعام:123.

ويقول عز من قائل: (وكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ* قَالُوا: تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ: مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ* وَمَكَرُوا مَكْرًا،

وَمَكَرْنَا مَكْرًا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ: أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ* فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) النمل:48–52.

ويقول جل في علاه: (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون* وقالوا نحن أكثر أموالًا وأولادًا، وما نحن بمعذبين) سبأ:34–35،

- من سنن إسقاط الحضارات: اعتراف أهلها الفاسدين بانحرافهم، قبل نزول العذاب بهم:

يقول تبارك وتعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا) النساء:159.

ويقول تبارك وتعالى: (فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) الأعراف:5!

وكما قال فرعون عليه لعائن الله حين أدركه الغرق: (آمنت بالذي آمنت به بنوه إسرائيل، وأنا من المسلمين* الآن وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين؟* فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) يونس:90–92.

- من سنن الله تعالى: أن يترك من آثار الظالمين شهادة على إهلاكهم، وعظة لمن بعدهم:

يقول عز من قائل: (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين، وبالليل؛ أفلا تعقلون؟) الصافات:137–138.

ويقول سبحانه: (ومَكرُوا مَكْرًا، وَمَكَرْنا مَكْرًا، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ* فَانْظُرْ: كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ* فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا؛ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) النمل:50–52.

ويقول جل وعلا: (وكم أهلكنا من قرية بطرت *معيشتها* فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا، وكنا نحن الوارثين) القصص:58/ وغيرها..

- من سنن الله تعالى ألا يهلك قومًا حتى يقدموا بأنفسهم أسبابًا لهلاكهم:

ففي الحديث المرفوع في أحمد وأبي داود وغيرهما: (لن يهلك الناس حتى يُعذروا من أنفسهم)، قال المناوي في فيض القدير: أي تكثر ذنوبهم وعيوبهم، ويتركون تلافيها، فيظهر عذره تعالى في عقوبتهم فيستوجبون العقوبة! (وقال في عون المعبود شرح سنن أبي داود: قيل: معناه حتى يكثر ذنوبهم؛ من أعذر إذا صار ذا عيب، وقيل معناه: حتى لم يبق لهم عذر بإظهار الحق لهم، وتركهم العمل به بلا عذر، ومانع؛ من أعذر: إذا زال عذره؛ فكأنهم أزالوا عذرهم، وأقاموا الحجة لمن يعذرهم، حيث تركوا العمل بالحق بعد ظهوره، وقيل: عذره إذا جعله معذورًا في العقاب؛ وإليه يشير تفسير الصحابي؛ فإنه جاء هذا الحديث عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه؛ إذ قيل له: كيف يكون ذلك؟ فقرأ هذه الآية: (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) عن إسلام ويب.

- ومن سنن الله تعالى أن الحضارة الهالكة لا تعود:

قال الله تبارك وتعالى: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) الأنبياء:95.

قال في التحرير والتنوير: (المعنى: مُنع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم؛ لأنه قد سبق تقدير هلاكها، وهذا إعلام بسنة الله تعالى في تصرفه في الأمم الخالية، مقصود منه

التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان، وتهديدهم بالهلاك.

وفي القرطبي: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك، وقيل: لا يتوبون، وفي فتح القدير: قال الزجاج وأبو علي الفارسي :إن في الكلام إضمارًا، أي: وحرام على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالختم على قلوب أهلها، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون، أي لا يتوبون.

- **من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أن الأمم الهالكة لا تكون مؤمنة أبدًا:**

إن الأمم التي استعلت على الإيمان، واشترطت على أنبيائها، لم تكن لتؤمن – عنتًا وكبرًا – إذا حقق الله لها ما طلبت، يقول تبارك وتعالى: (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها) الأنبياء:6.

جاء في تفسير الشيخ المنتصر الكتاني للآية: قال أهل مكة: ما باله لا يأتينا بآية كما أتى بها الأنبياء السابقون، ويعنون بالآية: ما كانوا اقترحوه وطلبوه – حسب نزواتهم وأهوائهم – من أن تكون الصفا والمروة ذهبًا، ومن أن تزاح جبال مكة ويكون مكانها أشجار وغابات ومنخفضات، وأن تفجر مكة عيونًا؛ وهم مع ذلك لا يطلبون ذلك للإيمان والتصديق، وإنما يطلبونه عنادًا، ويقولون: ما بال الأولين قد اقترحوا الناقة على صالح فكانت، واقترحوا.. واقترحوا.. مما ذكروه عن نوح وهود وصالح وموسى وإبراهيم؟

فكان جواب الله لهم: (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) الأنبياء:6. أي: إن الأمم السابقة عندما اقترحوا هذه الآيات، وطلبوا من أنبيائهم هذه المعجزات فما آمنوا، أهلكهم الله ودمرهم، ولم يمهلهم ولم ينظرهم، فلو استجبنا لكم وأتتكم هذه البينات، وأنتم لا تؤمنون؛ فسيكون ذلك سببًا لهلاككم ودماركم، ولكن الله تعالى – تكرمة لنبيه – رفع ما كان قبل على الأمم السابقة، وعلى أتباع الأنبياء من الهلاك في الدنيا بغرق وصعقة وزلازل، ورجوم من السماء، بل أمهلهم علهم يؤمنون ويراجعون أنفسهم، أو لعلهم يعيشون فيأتي من ذرياتهم من يؤمن، وهكذا حدث، فأكثر هؤلاء الذين أصروا على الكفر أولًا آمنوا بعد ذلك، أو آمن أولادهم، وأصبحوا

للإسلام قادة، وللدعوة المحمدية جندًا ودعاة بالأنفس والأموال.

- من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أن جعل للأمم الظالمة موعدًا للهلاك:

يقول تبارك وتعالى: (لكل أمة أجل، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يونس:49

ويقول سبحانه وتعالى: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعدًا) الكهف:59،

- ومن سنن الله تعالى أن يقطع نسل الهالكين:

ففي مسلم عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إن الله تعالى لم يهلك قومًا – أو يعذب قومًا – فيجعل لهم نسلًا)!

- ومن سنن الله تعالى أن الأمم الهالكة تدمر بالكامل:

يقول تبارك وتعالى: (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد) الحج:45/ ويقول تعالى: (فدمرناهم تدميرًا) الفرقان:36.

ويقول مالك الملك: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد) هود:102/ وغيرها.

- من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أن يعذبهم قبل إهلاكهم، وبعد إهلاكهم:

يقول تعالى عن فرعون وأشباهه: (النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر:46.

ويقول تبارك وتعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ* وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) الفجر:60-13.

وفي الحديث الشريف في مسلم عن سيدي أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إذا أراد الله هلكة أمة عذبها)!

- **من سنن الله تعالى في إسقاط الحضارات أنه لم تنج من الهلاك إلا أمة واحدة:**

قال الله تعالى: فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس: لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ومتعناهم إلى حين) قال الإمام ابن كثير: قال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم !

سرطان جسد أمة محمد صلى الله عليه وسلم:

يتداعى الجسد البشري ويتهاوى إذا تمكنت منه خلايا مدمرة كخلايا الإيدز أو السرطان – نعوذ بالله من جهد البلاء – بعد أن يعجز عن مواجهتها، فيهزل، ويفقد قوته ومقاومته، ويبدأ في التهاوى، ثم ما يلبث أن يركض نحو الفناء، مهزومًا محسورًا.. وهذا هو حال الأمم إذا تبنت فيروسات دمارها.

ومعظم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليس في منجىً من ذلك؛ بل إنها إذا استزرعت خلايا تدميرها فإنها ستتداعى وتبتر منها أجزاء غالية، أو معظم أجزائها الغالية؛ جزاء وفاقًا.

ومن أخطر وأشد عوامل تدمير هذه الأمة وسقوطها؛ بأيديها وأيدي أعدائها:

- **إذا نسوا الله تبارك وتعالى عند البلاء والشدة:**

يقول تبارك وتعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء؛ لعلهم يتضرعون* فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون* فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء؛ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون* فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين) الأنعام:42–45. وفي مسند أحمد، عن سيدي عقبة بن عامر، رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج)!

- **إذا اختلفوا وصار رأيهم وأمرهم شيعًا، وأحزابًا، وفرقًا وطوائف:**

وقد قال من قولُه الفصل: (ولا تنازعوا فتشلوا وتذهب ريحكم) الأنفال:46. وقال عز قائلًا: (ولا تكونوا من المشركين* من الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعًا) الروم:31–32)!

وفي عارضة الأحوذي، بسند حسن صحيح، وصحيح سنن النسائي، عن سيدي خباب رضي الله تعالى عنه قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ صلاةً فأطالَه، فقالُوا: يا رسولَ اللَّهِ: صلَّيتَ صلاةً لم تَكن تصلِّيها!

قال: أجَل إنَّها صَلاةُ رغبةٍ ورَهبةٍ؛ إنِّي سألتُ اللَّهَ فِيها ثلاثًا، فأعطاني اثنتينِ، ومنَعني واحدَةً: سألتُه ألا يُهلِكَ أمَّتي بسَنةٍ فأعطانيها، وسألتُه ألا يسلِّطَ عليهم عدوًّا من غيرِهِم فأعطانِيها، وسألتُه ألا يذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ فمنَعَنيها)!

- **إذا ضربوا الكتاب بعضه ببعض، واستخدموا لإبطال الحق وإحقاق الباطل:**

ففي الصحيحين عن سدي أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (دعوني ما تركتُكم، إنما أهلك من كان قبلكم سؤالُهم واختلافُهم على أنبيائِهم، فإذا نهيتُكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم)!

وفي مسلم عن سيدي عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: هجَّرتُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا، فسمع أصواتَ رجلَين اختلفا في آيةٍ، فخرج علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، يُعرَفُ في وجهه الغضبُ، فقال: إنما هلك مَن كان قبلَكم باختلافِهم في الكتابِ)!

وفي عمدة التفسير بسند صحيح، عن جد عمرو بن شعيب (عبد الله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهم، قال: سمعَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قومًا يتدارَؤونَ فقالَ: (إنَّما هلَكَ مَن كانَ قبلَكُم بِهَذا، ضربوا كتابَ اللَّهِ بعضَهُ ببعضٍ، وإنَّما نزلَ كتاب اللَّه ليصدِّقَ بعضُهُ بعضًا، فلا تُكَذِّبوا بعضَهُ ببَعضٍ، فما عَلِمْتُم منهُ فقولوا، وما جَهِلْتُم فَكِلوهُ إلى عالِمِهِ)!

- **إذا فشا فيهم الظلم، وجار القضاة حماة الحق:**

ففي سورة هود عليه السلام/ 102: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد).

وفي مسلم عن سيدي جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا: (اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ! واتَّقوا الشُّحَّ فإنَّ الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم: حملهم على أن سفكوا دماءَهم واستحلُّوا محارمَهم) وقد مر.

- **إذا انفتحت عليهم الدنيا، فلم يحسنوا إدارتها لصالح الحق والخير، والآخرة:**

ففي البخاري ومسلم عن سيديّ عمرو بن عوف المزني والمسور بن مخرمة أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (...أبْشِروا وأمِّلُوا ما يَسُرُّكم، فواللَّهِ ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسَطَ عليكمُ الدُّنْيا، كما بُسِطَتْ علَى مَن كان قبلكم، فَتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُلْهِيَكُم كما ألهَتْهُمْ)!

وفي صحيح الترغيب عن سيدي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعًا (إنما أهلك من قبلَكم الدينارُ والدّرهمُ، وهما مُهلكاكم)!

وفي مسلم عن سيدي أُبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله تعالى عنه، قال : لا يزالُ الناسُ مختلفةً أعناقُهم في طلبِ الدنيا؛ إني سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول : (يوشكُ الفراتُ أن يُحسِرَ عن جبلٍ من ذهبٍ ، فإذا سمع به الناسُ ساروا إليه ، فيقول من عنده: لئن تركنَ الناسَ يأخذون منه ليذهَبُنَّ به كلُّه، قال فيقتَتِلون عليه، فيُقتَلُ من كلِّ مائةٍ تسعةٌ وتسعون)!

- **إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

يقول عز من قائل: (و إذْ قَالَتْ أُمَّةٌ منْهُمْ : لمَ تَعظُونَ قَومًا اللهُ مُهْلكُهُمْ ، أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَديدًا؟ قَالُوا: مَعْذرَةً إلى رَبِّكُمْ ؛ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به أَنجَيْنَا الَّذينَ يَنْهَوْنَ عَن السُّوء، وَأَخَذْنَا الَّذينَ ظَلَمُوا بعَذَاب بَئيس؛ بمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) الأعراف: 164– 165.

ويقول تبارك وتعالى: (فلوْلا كَانَ مِنَ القُرُون مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّة، يَنْهَوْنَ عَن الفَسَاد في الأَرْض إلاَّ قَليلًا مِمَّنْ أنجَيْنَا مِنْهُمْ؛ واتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فيه) هود:116.

وفي صحيح سنن الترمذي عن سيدي حذيفة رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (والَّذي نَفسي بيدِهِ: لتأمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتَنهوُنَّ عنِ المنكرِ؛ أو ليوشِكَنَّ اللَّهُ أن يبعثَ عليكُم عقابًا منهُ، ثمَّ تَدعونَهُ فلا يَستجيبُ لَكُم)!

وفي صحيح سنن أبي داود عن سيدي جرير بن عبد الله رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (ما من رجل يكون في قوم، يعملُ فيهم بالمعاصي، يقدِرون على أن يغيِّروا عليه، فلا يغيِّروا؛ إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا)!

- **إذا استمرؤوا الاستباحة الأخلاقية: تلاعنوا واستباحوا الخمر والشذوذ:**

ففي الترغيب والترهيب، وشعب الإيمان، عن سيدي أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إذا استحلَّت أمَّتي خمسًا فعليهم الدَّمارُ: إذا ظهر التَّلاعنُ، وشرِبوا الخمورَ، ولبِسوا الحرير، واتَّخذوا القِيانَ، واكتفَى الرِّجالُ بالرِّجالِ، والنِّساءُ بالنِّساءِ).

وفي سنن أبي داود ونيل الأوطار عن سيدي أبي مالك الأشعري رضي الله عنه يرفعه: (ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير) وضعفه الشوكاني.

- **إذا استمرؤوا الاستباحة المالية: المعاملات الربوية وما يصاحبها:**

يقول عز جاهه: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا؛ إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) البقرة:278–288.

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أبو داود عن سيدي ابن عمر رضي الله عنهما: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم).

- **إذا استمرؤوا الاستباحة الاجتماعية: الطبقية، والتفرقة البغيضة:**

ففي البخاري عن سيدتي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن أسامةَ كلَّمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في امرأةٍ، فقال عله الصلاة والسلام : (إنما هلك من كان قبلَكم؛ أنهم كانوا يقيمون الحدَّ على الوضيعِ، ويتركون الشريفَ، والذي نفسي بيدِه، لو فاطمةَ فعلت ذلك لقطعتُ يدَه)!

بل إنه صلى الله عليه وسلم ألغى كل سبب يدفع الإنسان إلى الاستعلاء والتحكم في الآخرين فقد قال تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها، وبث منها رجالًا كثيرًا ونساء) النساء:1،

وفي الترغيب والترهيب، وصححه الألباني عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا: (ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ؛ إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

(وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم أبا ذر الغفاري ، يعتدي على بلال الحبشي ويقول له: يا بن السوداء، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبًا شديدًا ، وانتهر أبا ذر وقال: (طف الصاع، طف الصاع) ثم اتجه إلى أبي ذر وقال له: (انك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ؛ إلا بالتقوى أو عمل صالح) فوضع أبو ذر خده على الأرض، وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه؛ حتى يغفر الله له زلته هذه، ويكفر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى) الإسلام اليوم.

- **إذا أولعوا بالنساء، وتوسعوا في أمرهن:**

لا شك أنها مغضبة للرب تعالى، حين تكون الراقصة مكرمة وأمًّا مثالية، وتكون المحجبة أو المنقبة إرهابية، وحين تكون ممثلة العري مجاهدة والمستورة فاسقة، وحين يمدح التبرج والعري ويهاجم العفاف، وحين تتوسع مدارس الرقص وتحمى، وتضرب المساجد وتحقر، وحين تعتبر السينما وتوابعها أدوات تنوير، وتكون الأديان ظلامية، وحين تفتح في بلاد المسلمين المراقص والملاهي والمباغي، وتغلق المساجد، والكتاتيب، والقنوات الإسلامية، وحين تقام حفلات مستبيحة جهارًا نهارًا، ويصادر صوت العلماء والمصلحين؛ وهذا حال أمتنا التعيسة.

وقد أضحى ظاهرًا أن هذا الجنس من البشر عاش بتشجيع وعطاء الجبابرة منتهكي الشعوب!

ورد في مسلم عن سيدي أبي سعيد رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (اتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)!

وفي البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، مرفوعًا: (ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء).

وقد توسع الناس في جانب النساء، فصار التعري عادة، والتبرج تحضرًا، والاختلاط (بزنس) والخلوة حرية، والتباسط أخوة، والتعانق والترقص مدنية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

- **إذا سقطوا في الغلو والتطرف:**

يقول الله تعالى في سورة النساء: 171: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ: لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ، وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ)!

ويقول جل شأنه في سورة المائدة: 77 : (قُلْ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ).

وفي التمهيد بسند صحيح عن سيدي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غَداةَ العقبةِ وهو على راحلتِه: (هاتِ القَطْ لي)، فلقطتُ له حصَياتٍ مثلَ حصَى الخذْفِ فلمَّا وضعتُها في يدِه قال: (بأمثالِ هؤلاء فارموا، وإيَّاكم والغُلوَّ في الدِّينِ؛ فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغُلوِّ في الدِّينِ).

وقد هلكت الكنيسة بغلوها ورهبنتها المبتدعة، وحادت عن طريق عيسى عليه السلام، كما غلا اليهود والروافض والسيخ والهندوس! لكن أن يأتي الغلو من طوائف مسلمة في شخص أو طائفة أو مسلك (استمساكًا أو تساهلًا) فنحن نرى في واقعنا التعيس ما أدى بالأمة إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سرطانات الحضارات المعاصرة

على ضوء قراءة عوامل انهيار الحضارات الساقطة

سرطانات الحضارات المعاصرة

على ضوء قراءة عوامل انهيار الحضارات الساقطة

بطريقتهم المادية البحتة تأمل الغربيون أسباب سقوط الحضارات، واجتهدوا في تفسيرها، ليصلوا في تأملاتهم إلى أسباب حسية بحتة، لا وجود فيها للإله ولا للآخرة، عكس التحليل القرآني، الذي جعل جوهر الأسباب: التمرد والجحود والكفر بالله تعالى، وإن كان السبب المباشر ماديًّا أيضًا، مثل الخسف، والريح، والزلزلة، والطوفان، والغرق، وغيرها!

فتعال نتأمل بعض الدراسات الغربية حول هذا الأمر الخطر الشنيع، نسأل الله تعالى أن يرفع عنا العذاب؛ إنا مؤمنون، وألا يؤاخذنا بذنوبنا وسيئات أعمالنا، وأن يعافينا ويعفو عنا؛ اللهم آمين:

في كتاب الأمة الثالث والخمسين بعد المائة: «الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية.. دراسة مقارنة»، كتب الأستاذ الدكتور عبد الله محمد الأمين النعيم الرؤية الغربية لعوامل قيام وسقوط الحضارات (باختصار) فقال: حصرت النظريات الغربية نفسها وهي تفسر نشوء الحضارات في عاملين يعودان للطبيعة والإنسان ! ولا يمكن فهم انغلاق هذه النظريات على هذين البعدين، الإنسان والطبيعة، إلا بفهم النظريات التي شكَّلت التصوّر عن الحياة والكون والوجود ككل، والتي ترتد في أصولها الأولى والمنشئة لها إلى التراث اليوناني – الروماني الغارق في الوثنية والتعدّدية، ولقد نتج عن هذا التصور نزعات فلسفية مثل المادية والطبيعية، وهذه النزعات في مجملها كانت وليدة القول بمحورية الإنسان الفرد الصمد!

وقد أرجع توينبي سقوط الحضارة إلى ثلاثة أسباب هي :

- ضعف القوة الخلاقة في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية.
- تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة وكفّها عن محاكاتها.
- الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله.

وفي سؤال له: لماذا تنهار الحضارات؟ يقول روبرت لامب:

إن في كل قارة آثارًا وحطامًا من حجارة تحكي قصص حضارات منهارة، دفينة تحت الأرض، أو في رحاب غابة، أو وسط مدينة صناعية كبرى، وكلها تثير سؤالا واحدًا: كيف يتلاشي شيء هائل كهذا؟ لماذا تنهار الحضارات؟ ويشير للحروب الاستئصالية، والأمراض الوبائية، والاضطرابات الجغرافية، وحروب الإبادة التي تستأصل شعوبًا بكامل كما حصل لحضارة المايا، وكذا حضارة سومر التي تلاشت مائي عامي قبل الميلاد بسبب الروح الاستئصالية للغزاة!

وكذا الجفاف الذي ضرب حضارة الأكاديين مدة 300 سنة بين 2200 و 2500 ق.م.

وكذا الجفاف الذي ضر حضارة الخمير في كمبوديا، بين القرنين 9و15 حتى زالت وبادت!

مترجمة عن: http://science.howstuffworks.com/environmental/green-science/civilizations-collapse.htm

ومواقع أخرى عدة:

وذكرت الويكيبيديا من الأسباب: الكوارث الطبيعية (تسونامي/ الزلازل/ الحرارة العالية في الجو، والكثافة السكانية العالية، ونضوب الموارد الطبيعية!

وكتب آدم ويتنهال في الإندبندنت (الأحد 2014/12/16) عن تمويل ناسا لدراسة تؤكد أن حضارتنا المعاصرة ستنهار خلال عقود! بسبب انعدام الاستقرار الاقتصادي، وإساءة استخدام مواردنا الطبيعية، وأشار إلى دراسة العالم الرياضي صفا مطشري أن عمليه انهيار الحضارات أمر دوري متكرر، وأن استمرارنا في النهج الاستهلاكي الصناعي للقرن القادم هو – في أشد الدراسات المتحفظة – وخيم النتيجة وسريعها!

وأشار مطشري من عوامل سقوط الحضارة – بجانب التغير المناخي والانفجار السكاني –: تحول المجتمعات إلى طبقية: نخب مستحوذة على كل شيء، وجمهور لا يجد شيئًا! وطالب النخب بإعادة التوازن قبل الانهيار.

وفي العام الماضي عكفت نخبة من خلاصة العقول البريطانية، من ستيفن هاوكنج ليرسموا خارطة عوامل (الانهيار) ومسبباته!

وفي أول مايو 2013 كتب أندرو هاولي في الناشونل جيوجرافك عن عوامل انهيار حضارات الصين ومصر وما بين النهرين والمايا، تحت شعار: الماضي نافذةً للمستقبل، بعد إثارة ثلاثة أسئلة كبرى يهمنا منها: هل قدر كل حضارة سقوطها؟

وأشار إلى أن سقوط بعض الحضارات قد لا يعني زوالها، وأنه ليس هناك انهيار مفاجئ، بل تتدرج الأمور، وأن الناس لا يزولون دائمًا بل ينتقلون، أو يتغيرون، وتنهار تقاليدهم الكبرى، وتبقى منمنمات التقاليد – كما أشار لذلك الآثاري دوريان فولر – وأنها يمكن أن تسقط إذا لم تطور أنماطها الثقافية!

وفي مجلة Front line الهندية سأل ر. راماشاندران عن (لماذا تنهار الحضارات؟) وتحدث عن سيناريوهات ثلاثة أوردها مطشري عن: المجتمع المتساوي؛ حيث تغيب النخبة، والمجتمع المنصف، الذي فيه مجموعتان (عاملة وغير عاملة) لكن فيه مساواة ونصفة، والمجتمع الطبقي الذي فيه نخبة مهيمنة، هي سبب الشرور!

فما وجهة نظر الإسلام في ذلك؟ وهل الأسباب كلها فيه مادية: تعالوا نر:

في إضاءات قرآنية عن أسباب سقوط الحضارات، يقول تعالى:

يقول تبارك وتعالى في سورة هود: 100–103: (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك، منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم؛ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد* إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة؛ ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود) 96–103

ويقول عز من قائل: ((إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير * وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم؛ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير* ثم أخذت الذين كفروا؛ فكيف كان نكير) فاطر: 24–26

ويقول سبحانه وجل وعز: (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود* وقوم إبراهيم وقوم لوط* وأصحاب مدين، وكذب موسى، فأمليت للكافرين، ثم أخذتهم؛ فكيف كان نكير* فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصر مشيد* أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها؟ أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج:42-46

ويقول ذو الجلال والإكرام: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ؛ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) غافر:5

فتعال ننظر في سرطانات الحضارة:

- **من أسباب سقوط الدول: الكفر، والإعراض عن الله تعالى:**

يقول الله تبارك وتعالى: (..فمن اتبع هداي فلا يضل، ولا يشقى* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا، ونحشره يوم القيامة أعمى* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا؟* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى* وكذلك نجزي من أسرف، ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى* أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم؟ إن في ذلك لآيات لأولي النهى) طه:123–128.

وقال تعالى عن اليمنيين أهل سبأ: (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، وأثل وشيء من سدر قليل* ذلك جزيناهم بما كفروا؛ وهل نجازي إلا الكفور)؟! سبأ:16–17.

ويقول تعالى مهددًا قريشًا وكل من يعرض عن ذكر الله تعالى: (فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود* إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم، ومن خلفهم: ألا تعبدوا إلا الله، قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة؛ فإنا بما أرسلتم به كافرون* فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: من أشد منا قوة؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟ وكانوا بآياتنا يجحدون* فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا، في أيام نحسات؛ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، وهم لا ينصرون* وأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون؛ بما كانوا يكسبون* ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) فصلت:13–18. وغير ذلك.

- **ومن أسباب سقوط الدول: الذنوب العامة الفاشية:**

يقول عز وجل: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن؛ مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم؟ فأهلكناهم بذنوبهم، وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين) الأنعام:6. ويقول سبحانه: (و نَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) آل عمران:181–182،

ويقول سبحانه: (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نفْسِ ك) النساء:79،

ويقول عز من قائل: (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ...) القصص:47، وغيرها.

- **ومن أسباب سقوط الدول: حب الدنيا وكراهية الموت:**

ففي صحيح سنن أبي داود عن سيدي ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا: (يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلةُ إلى قصعتِها. فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ. فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ)!

- **ومن أسباب الدول: انتشار التطرف والغلو والتنطع وسوء التدين:**

ففي التمهيد بسند صحيح عن سيدي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غَداةَ العقبةِ وهو على راحلتِه: (....وإيَّاكم والغُلوَّ في الدِّينِ؛ فإنَّما هلك من كان قبلكم بالغُلوِّ في الدِّين)!

والمراد هنا تطرف بعض المسلمين الذين شددوا على أنفسهم وعلى عباد الله، ويمارسون دينًا لم يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي جاء بالحنيفية السمحة (كما في السلسلة الصحيحة) وكذا تطرف الآخرين: كالأصوليين الإنجيليين والصهاينة والروافض والسيخ والهندوس.. وبقية أهل الأديان؛ حتى الوضعية منها، كتطرف الإلحاد، والجحد..

- ومن أسباب سقوط الدول: تفشي الظلم وانتشاره وغلبته:

إن انتشار الظلم (بأنواعه ابتداء من معنى الكفر والشرك، حتى احتجان الحقوق، وتنكب سبل العدل) من أكبر عوامل سقوط الحضارات، ولولا بعض الانضباط في الحضارات الأوربية المعاصرة ونوع من التزام الحقوق الظاهرة بشكل واسع لسقطت بسهولة:

يقول العليم الخبير سبحانه: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين* ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم؛ لننظر كيف تعملون) يونس:13-14.

ويقول الله تبارك وتعالى: (ذلك من أنباء القرى، نقصه عليك، منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم، ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون اللّه من شيء، لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديدة) هود: 100-102.

وفي صحيح سنن الترمذي عن سيدي أبي موسى رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: (إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى يُملي للظَّالِمِ، حتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْهُ، ثمَّ قرأ: (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) الآيةَ!

ومن أشنع أشكال الظلم المهلك: أن يفسد القضاء؛ حتى يكون ألعوبة في أيدي الفراعين، والفاسدين، والمستبيحين، فيسجن الشرفاء ويقمعهم، ويعمي عن استباحة حرماتهم وأعراضهم،

ويبرئ الفاسدين ويرفعهم، ويغضي عن جرائمهم وانتهاكاتهم، كذلك القضاء (الشامخ) الذي يسجن العلماء، والشرفاء، والدعاة، والأبرياء، والأطفال والنساء، ويطلق سراح النهابين، والجلادين، والمتفرعنين، ولصوص الأمة، وخائني الذمة، والبلطجية القتلة بتصريح رسمي، لا يستحي ولا يرعوي، ولا يبالي من انتقد أو عاب!

- **ومن أشنع أنواعه ألا تواجه الأمة الظالم ، وتقول له: أنت ظالم: ففي الجامع الصغير عن سيدي جابر وعبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهم، مرفوعًا: (إذا رأيتَ أُمتي تهابُ الظالمَ أنْ تقولَ لهُ : إنَّكَ ظالمٌ ، فقدْ تُوُدِّعَ مِنْهُمْ)!**
- **ومن أشنع أنواعه كذلك ألا يأخذ الضعيف حقه بيسر؛ ففي صحيح الترغيب، عن سيدي أبي سعيد مرفوعًا: (لا قدَّس اللهُ أُمَّةً لا يأخذ ضعيفُها الحقَّ من قويِّها؛ غيرَ مُتَعْتَعٍ).**
- **ومن أسباب سقوط الدول: تفشي الفساد وانتشاره وغلبته:**

والفساد أخلاقي، وقيمي، وسلوكي، واجتماعي، ومالي، وغير ذلك، وإذا ساد هذا البلاء في أمة استحقت السقوط، كما ذكر الله تعالى في كتابه الكريم: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد؟* إرم ذات العماد* التي لم يخلق مثلها في البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد* وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد* فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربك سوط عذاب* ان ربك لبالمرصاد) الفجر:6-14.

وهو مما يجري أيضًا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي ستتبع سنن من كان قبلها، وسنن الأمم الفاجرة المتغطرسة التي تعاصرها، ففي البخاري عن سيدي أبي سعيد رضي الله عنه، قال: يقول صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سننَ من قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو سلكوا جحرَ ضبٍّ لسلكتموه، قلْنا: يا رسولَ اللهِ، اليهودُ والنصارى؟ قال: فمن).

وفي تخريج مشكاة المصابيح عن سيدي ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: (ليأتينَّ علَى أمَّتي كما أتى علَى بني إسرائيلَ ، حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ ؛ حتَّى إن كانَ منهُم مَن أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي مَن يصنعُ ذلِكَ)!

- ومن الأسباب: انتشار عمل قوم لوط، المسمى (المثلية) تخفيفًا، والاستباحات الأخرى:

يقول الله تعالى عما ألحق بقوم لوط من غضب: (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود* مسومة عند ربك؛ وما هي من الظالمين ببعيد) هود:82-83!

وقال تعالى ناعيًا عليهم انتكاس فطرهم: (أتأتون الذكران من العالمين* وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون* قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين* قال إني لعملكم من القالين* رب نجني وأهلي مما يعملون* فنجيناه وأهله أجمعين* إلا عجوزا في الغابرين* ثم دمرنا الآخرين* وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) الشعراء:165-173!

وفي تهديد الذين يعملون العمل نفسه يقول تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم!؟ دمر الله عليهم؛ وللكافرين أمثالها) محمد:10.

- ومن أسباب سقوط الدول: انتشار الطبقية والتفرقة بين الناس:

لا يميز الإسلام بين الناس بسبب ألوانهم أو أجناسهم أو أي شيء آخر؛ لأنهم جميعًا: (لآدم، وآدم من تراب) ولأنه (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) كما ورد في مسلم عن سيدنا جابر رضي الله تعالى عنه. وفي مسند أحمد بسند صحيح مرفوعًا: (لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى)!

وفي البخاري عن سيدي عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهم، أنَّ امرأةً سرقت في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ الفتحِ، ففزع قومُها إلى أسامةَ بنِ زيدٍ يستشفعونه. قال عروةُ: فلما كلمه أسامةُ فيها تلوَّن وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال : (أتكلِّمُني في حدٍّ

من حدودِ اللهِ) قال أسامة: استغفرْ لي يا رسولَ اللهِ، فلما كان العشيُّ قام رسولُ اللهِ خطيبًا، فأثنى على اللهِ بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلَكم : أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو أن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها)!

- ومن أسباب سقوط الدول: انتشار البطر وكفر النعمة:

يقول تعالى: (وضرب اللّه مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغدًا، من كل مكان، فكفرت بأنعم اللّه، فاذاقها اللّه لباس الجوع والخوف؛ بما كانوا يصنعون) النحل:112!

ويقول تعالى: (وكم من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم – إلا قليلًا – وكنا نحن الوارثين) القصص:58.

- ومن أسباب سقوط الدول: انتشار الترف والسرف:

يقول عز من قائل: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) الإسراء:16، ويقول جل شأنه: (ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم، ومن نشاء، وأهلكنا المسرفين) الأنبياء:9،

ويقول الله تعالى موبخًا أهل النار: (لا تركضوا، وارجعوا إلى ما أترفتم فيه، ومساكنكم، لعلكم تسألون) الأنبياء:13،

وفي أصحاب الشمال يقول تعالى: (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين* وكانوا يصرون على الحنث العظيم* وكانوا يقولون: أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا، إنا لمبعوثون* أو آباؤنا الأولون؟) الواقعة:45–48.

- **ومن أسباب سقوط الدول: انتشار الربا، والمعاملات المحرمة:**

يقول الله تبارك وتعالى: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا؛ إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم؛ لا تظلمون ولا تظلمون) البقرة:278–279.

قراءات لحضارات سقطت:

قراءات لحضارات سقطت:

ثمود التي أحبت العمى على الهدى:

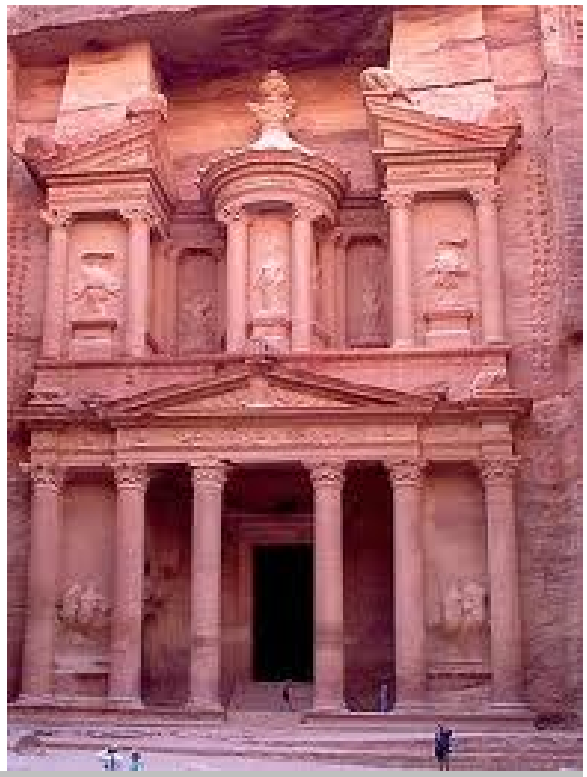

قصة سيدنا صالح عليه السلام معروفة مشتهرة، لكنني هنا سأتأمل أسباب سقوطها من خلال نصوص القرآن الكريم:

- لقد استخلفهم الله تعالى، وأمرهم أن يقيموا حضارة وعمرانًا:

(وإلى ثمود أخاهم صالحًا، قال: يا قوم اعبدوا الله، ما لكم من إله غيره؛ هو أنشأكم من الأرض، واستعمركم فيها، فاستغفروه، ثم توبوا إليه؛ إن ربي قريب مجيب) هود:61!

- وقد مكن لهم فأبدعوا، وبرعوا في العمارة، والنحت، فاغتروا بسبب تمكنهم، وأفسدوا:

يقول تبارك وتعالى: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوأكم في الأرض: تتخذون من سهولها قصورًا، وتنحتون الجبال بيوتًا؛ فاذكروا آلاء الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين) الأعراف:74!

ويقول تعالى في سورة الحجر: (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين* وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين* وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين* فأخذتهم الصيحة مصبحين* فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) الحجر:80–84!

- **وآتاهم الله جنات وبساتين وخيرات كثيرة؛ تيسيرًا، وزيادة في التمكين:**

يقول تبارك وتعالى على لسان سيدنا صالح نبيهم: (أتتركون في ما هاهنا آمنين* في جنات وعيون* وزروع ونخل طلعها هضيم) الشعراء:146–148!

- **قادت نخبهم الفاسدة حملة الشر والحرب على النبي وأتباعه:**

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا – لمن آمن منهم – أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون* قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون) الأعراف:76!

- **وقد نهاهم نبيهم عن اتباع النخب الفاسدة حتى لا يهلكوا:**

يذكر الله عز وجل أن نبيهم قال لهم: (ولا تطيعوا أمر المسرفين* الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) الشعراء:151–152!

- **اجترؤوا على النبي عليه السلام واتهموه بالسحر:**

يذكر الله عز وجل أنهم قالوا لنبيهم: (إنما أنت من المسحرين) الشعراء:153!

- **وقالوا إنه مشؤوم، جاءهم بما يسوؤهم: (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ لولا تستغفرون الله؛ لعلكم ترحمون* قالوا: اطيرنا بك وبمن معك، قال: طائركم عند الله؛ بل أنتم قوم تفتنون) النمل:46–47.**

- **تهكموا على النبي على السلام، وقالو ا له إنه شخص عادي مثلهم لا يتميز عنهم:**

كما قالوا له عليه السلام: (ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) الشعراء:154.

وقالوا: إنه لم يعد فيه خير بعد أن قال ما قال: (قالوا: يا صالح: قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا؛ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) هود:71.

- بل قالوا إنه كذاب متمادٍ في الكذب: (كذبت ثمود بالنذر* فقالوا: أبشرًا منا واحدًا نتبعه؟! إنا إذا لفي ضلال وسعر* أؤلقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر* سيعلمون غدًا من الكذاب الأشر) القمر:23–26.

- صبر النبي عليهم، ونصحهم، فلم يجد ذلك نفعًا: يقول تعالى: (فتولى عنهم وقال: ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين) الأعراف:79!

- بل تحدوه عليه السلام واستعجلوا العذاب: (...وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا؛ إن كنت من المرسلين* فأخذتهم الرجفة..) الأعراف:77–78!

- وجاءهم بالبينة على صدقة، فاعتدوا على ما جاءهم به ؛ متحدين مستفزين: (ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء، فيأخذكم عذاب قريب* فعقروها...) 73–74!

- بعد صبر النبي، واحتماله الطويل، أنذرهم العذاب، فلم ينزجروا: (فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام؛ ذلك وعد غير مكذوب* فلما جاء أمرنا نجينا صالحًا، والذين آمنوا معه برحمة منا، ومن خزي يومئذٍ؛ إن ربك هو القوي العزيز* وأخذ الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين* كأن لم يغنوا فيها؛ ألا إن ثمود كفروا ربهم، ألا بعدًا لثمود) هود:65–67.

- **بل ذكر الله تعالى أنهم استحبوا العمى على الهدى، والضلالة على الاستقامة: يقول تبارك وتعالى: (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى؛ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون* ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) فصلت:17-18.**

- **وانبرى أشقاهم فذبح الآية التي جاء به صالح عليهم السلام:**

يقول عز من قائل: (إنا مرسلو الناقة فتنة لهم؛ فارتقبهم واصطبر* ونبئهم أن الماء قسمة بينهم، كل شرب محتضر* فنادوا صاحبهم، فتعاطى فعقر* فكيف كان عذابي ونذر* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة، فكانوا كهشيم المحتظر* ولقد يسرنا القرآن للذكر؛ فهل من مدكر) القمر: 27-32.

- **وكانت النتيجة الحتمية أن أفناهم الله تعالى، فلم يبق بعدهم إلا مساكنهم شاهدًا عليهم: يقول تعالى: (ومكروا مكرًا، ومكرنا مكرًا، وهم لا يشعرون* فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين*فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا؛ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) النمل:39-43.**

دالت دولتهم، وسقطت حضارتهم، فلم تبق إلا آثارهم التي لا يدخلها المسلم إلا معتبرًا، باكيًا، أو متباكيًا على حضارة كان من الممكن أن تبقى إلى يومنا، مفيدة للإنسانية، خادمة للعمران، صانعة للتقدم، فما أشقى العميان الذين يستحبون العمى على الهدى!

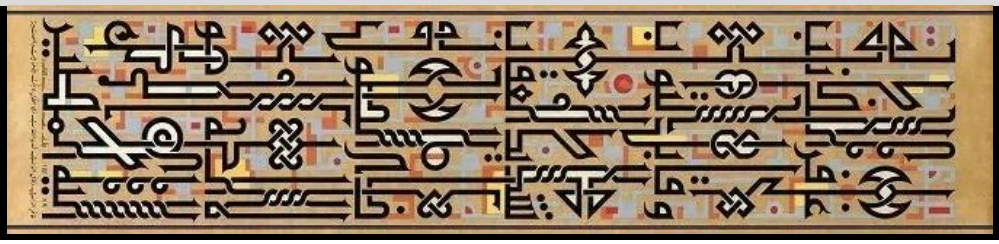

فرعون الإله الكاذب:

1. **الفرعون:**

هو الإله، ابن الشمس، اعتقد أنه من نسل غير نسل قومه، وطينة غير طينة قومه، ورأى لنفسه حقًّا أن يكون المعبود الأوحد، والرب الأعلى، وأصدر فرمانًا إعلاميًّا عبر وسائل إعلامه المتاحة: (فحشر فنادى. فقال: أنا ربكم الأعلى)!

- **واعتقد أنه يستطيع أن يرقى لمراقي الإله الحق تبارك وتعالى، فنادى الأغبياء الذين يُملون له، ويزينون الباطل: (يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي يا هامان ع لى الطين، فاجعل لي صرحًا، لعلي أطلع إلى إله موسى)..**
- **وصدقه الأغبياء، وآمنوا أنه إله يستحق أنه تعنو له جباههم، وت خبت له قلوبهم: (فاستخف قومه فأطاعوه؛ إنهم كانوا قومًا فاسقين) الزخرف:54.**
- **وظن أنه يملك مقادير العباد وأعمارهم: (قال أنا أحيي وأميت) البقرة:258!**
- **وعبّد الناس لنفسه، واعتقد أنه يملكهم ويملك مصر كلها: ما عليها، ومن عليها: (قال: يا قوم: أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري، من تحتي أفلا تبصرون) الزخرف:51!**

- واعتقد أنه ليس من حق مواطن أن يؤمن بشيء إلا بإذنه، وإشارته، وموافقته، وإلا فله العذاب والحرَب: (آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ؛ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابًوأبقى) طه:71!
- وقسم الشعب طبقات وشرائح: معه وعليه، احنا ناس وانتوا ناس: (إن فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعًا، يستضعف طائفة منهم: يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين) القصص:4!
- ومع هذا العتو والغباء كان واثقًا – من خلا ل تزيين المبطلين حوله – أنه هو الأحكم والأعلم والأمثل والأكمل: حتى من المرسلين والأنبياء: (إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المثلى* فأجمِعوا كيدكم، ثم ائتوا صفًّا، وقد أفلح اليوم من استعلى) طه:63–64!
- بل سخِر حتى من المرسلين والأنبياء، وقلل منهم: (أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين، ولا يكاد يبين* فلولا ألقي عليه أَ سوِرة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين) الزخرف: 52–53!
- وكان حوله مجموعة من النخب السياسية ، والاقتصادية، والكهان الرسميين، الذين يزينون له التفرعن والتأله: (قال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويذرك وآلهتك...) الأعراف:127!
- وله مجموعة من المرتزقة الوصوليين من السحرة الأفاكين ، الذين يأكلون المال بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، وأهم ما عندهم: الفلوس، والسلطة: (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين* قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) الشعراء:41–42!
- وكان يقيم المهرجانات المبهرجة ، والملهيات الباذخة: (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى* فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) طه:59–60.

- واستخدم إعلامًا مضللًا يفتن الشعب، ويفرعن الرعية، ويقلبها على مُصلحيها: (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين* إن هؤلاء لشرذمة قليلون* وإنهم لنا لغائظون* وإنا لجميع حاذرون) الشعراء:53-56!
- وأوحى لقضاة السوء بال تنكيل بالمخالفين ، وإيقاع أعظم العقوبات عليهم، فحكموا با لزور والتجبر: (قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) الأعراف: 127/ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى) طه:71!
- ونكّل حتى بزوجه المؤمنة العظيمة، سيدة نساء العالمين آسية ؛ لمجرد أنها خالفته، ووحدت ربها تبارك وتعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون؛ إذ قالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة،ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين) التحريم:11.

وحين نقرأ التاريخ سنرى أن البشرية عبر تاريخها ابتل يت بسلسلة لا متناهية من الفراعين الجبابرة، الذين يستبيحون الشعوب؛ دماء، وأعراضًا، ووأموالًا، وماضيًا وحاضرًا ومستقبلا، وأطفالًا ونساء ورجالًا، وعقيدة وسلوكًا وأخلاقًا، مع أنه عنين،وضيع، عيي، في ميزان الوطنية، والرجولة، والشرف، والاقتدار!

وماذا كانت النتيجة:

دمر فرعون – بغبائه وكبريائه الكذوب – نفسه وقومه وحضارته، فلم يُبق له م باقية، وأخذهم أخذة رابية، ثم هو في عذاب دائم في الدنيا، ويوم القيامة يرد إلى أشد العذاب، حاملًا لواء أهل النار إلى النار:

سبأ المتبطرة:

من أغبى الحضارات التي رأيتها: أولئك المتبطرون الذين يرزقهم الله تعالى من نعيمه، فيأبون إلا الذي هو أدنى، وأردأ، كما فعل اليهود عليهم لعائن الله، حين أنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى، فطلبوا الفول والعدس، والبصل، والثوم، وردوا نعمة الله تعالى عليهم!

يقول تبارك وتعالى عنهم : (وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ؛ كلوا من طيبات ما رزقناكم) البقرة: 57، فقالوا لنبيهم ذي العزم موسى عليه السلام: (لن نصبر على طعام واحد؛ فادع لنا ربك، يخرج لنا مما تنبت الأرض؛ من بقلها، وقثائها، وفومها، وعدسها، وبصلها! قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير . اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم ! وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله) البقرة:61.

ولقد شابهتهم في ذلك حضارة عربية في اليمن هي حضارة سبأ، التي رسم الله تعالى لها صورة بصرية عجيبة، في سورة سبأ، ببساتينها، وأنهارها، وثمارها، وأنهارها، ونعمها، فكان أن تبطروا، وطلبوا البعد في المسافات، وظلموا أنفسهم، ودمروا حضارتهم بالعصيان والجحد، والبطر والأشر؛ يقول تعالى حكاية عنهم: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ، وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ، وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ، ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ، وَأَثْلٍ، وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا؛ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ* وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً، وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ : سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا: رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ؛ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ، إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) سبأ:15–21!

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى في تفسير الآيات (باختصار وتصرف):

القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة، وزوالها عنهم، وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق. وهم كانوا على عهد الملكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في ملك عظيم، وفي خير عميم. ذلك إذ يقص الهدهد على سليمان: (إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم* وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) النمل:23–24، وقد أعقب ذلك إسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين ، فالقصة هنا تقع أحداثها بعد إسلام الملكة لله؛ وتحكي ما حل بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم!

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم، وما طاب إليهم من شكر المنعم بقدر ما يطيقون:

(لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ؛ كلوا من رزق ربكم واشكروا له : بلدة طيبة، ورب غفور)! وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن؛ وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم. وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزانًا طبيعيًّا يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سدًّا به عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم، وقد عرف باسم سد مأرب. وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب. وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين: (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) وذكروا بالنعمة: نعمة البلد الطيب ، وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات: (بلدة طيبة ورب غفور) سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء، وسماحة في السماء بالعفو والغفران. فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟!

ولكنهم لم يشكروا ولم يذكروا: (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين: ذواتي أكل خمط ، وأثل، وشيء من سدر قليل)! أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه؛ وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه – وهي الحجارة – لشدة تدفقه، فحطم السد، وانساحت المياه، فطغت وأغرقت؛ ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك فجفت واحترقت ! وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة: (وبدلناهم بجنتيهم جنتين:

ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) والخمط شجر الأراك ، أو كل شجر ذي شوك ! والأثل شجر يشبه الطرفاء ، والسدر النبق. وهو أجود ما صار لهم ، ولم يعد لهم منه إلا قليل! (ذلك جزيناهم بما كفروا) والأرجح أنه كفران النعمة : (وهل نجازي إلا الكفور) وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم!

ضيق الله عليهم في الرزق، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة؛ ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم. وكان العمران ما يزال متصلًا بينهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ ، ومتصلة بالقرى المباركة. والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدّرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأيامًا آمنين) قيل: كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السفر فيها محدود المسافات، مأمونًا على المسافرين ، كما كانت الراحة موفورة؛ لتقارب المنازل وتقارب المحطات في الطريق.

وغلبت الشقوة على سبأ، فلم ينفعهم النذير الأول؛ ولم يوجههم إلى التضرع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء ، بل دعوا دعوة الحمق والجهل: (فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا) تطلبوا الأسفار البعيدة المدى؛ التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام ، لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تشبع لذة الرحلات! وكان هذا من بطر القلب ، وظلم النفس: (وظلموا أنفسهم)!

واستجيبت دعوتهم، ولكن كما ينبغي أن تستجاب دعوة البطر: (فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق)! شردوا ومزقوا؛ وتفرقوا في أنحاء الجزيرة مبددي الشمل؛ وعادوا أحاديث

يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه ، بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة : (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)!

هذا فهم في الآية ، وهناك فهم آخر : فقد يكون المقصود بقوله: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة) أي قرى غالبة ذات سلطان ، بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة ، وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء ؛ فلم يصبروا على الابتلاء. وقالوا: (ربنا باعد بين أسفارنا) أي قلل من أسفارنا فقد تعبنا ، ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة لله تستحق استجابته لدعائهم. وكانوا قد بطروا النعمة، ولم يصبروا للمحنة. ففعل الله بهم ما فعل، ومزقهم كل ممزق؛ فأصبحوا أثرًا بعد عين، وحديثًا يروى وقصة تحكى!

المخارج والحلول

المخارج والحلول

ومع كل ما مر من المثبطات والمحبطات، فإنني متفائل، واثق من حفظ القرآن، وبقاء طائفة من الأمة، ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم؛ حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك.

كما أنني واثق من رحمة الله تبارك وتعالى الذي وصف لنا الأدواء، ووصف لنا الأدوية، بشكل يعين العاقل، والمعظم لحرمات الله تعالى، أن ينجو من الطوفان إن نزل.

فما هي المخارج التي فتح لنا الرحمن الرحيم أبوابها لننجو؟ تعال نر قارئي الكريم:

- **أول المخارج التضرع عند نزول البلاء:**

- **يقول تبارك وتعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضراء؛ لعلهم يتضرعون* فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون* فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء؛ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون* فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين) الأنعام:42-44.**

ويقول تعالى في بعض الأمم المعتوهة التي لم تعقل، ولم ترعو، أو تتضرع: (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) المؤمنون:76،

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخذ الله قريشًا بسني الجدب، إذ دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ... عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال: جاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز! يعني الوبر والدم، فأنزل الله : (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) !

- **ومن المخارج المهمة: الدعاء:**

الدعاء للأمة، والدعاء للسلطان، والدعاء لنفسك ومن تحب، فلا يرد القضاء إلا الدعاء، كما ورد في صحيح سنن الترمذي عن سيدي سلمان رضي الله عنه مرفوعًا،

وفي البدر المنير لابن الملقن، وله شواهد: (الدُّعاءُ والبلاءُ يَعتلِجانِ) أي : يتدافعانِ!

وفي حديث آخر – فيه كلام – في صحيح الجامع، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، مرفوعًا: (لا يُغْنِي حَذَرٌ من قَدَرٍ، والدعاءُ ينفعُ مما نزل، ومما لم يَنْزِلْ، وإنَّ البلاءَ لَيَنْزِلُ، فيَتَلَقَّاه الدعاءُ، فيَعْتَلِجَانِ إلى يومِ القيامةِ)!

- **ومن المخارج: المبادرة بالتوبة النصوح؛ وقد نفع هذا قوم سيدنا يونس عليه السلام:**

يقول ربنا تبارك وتعالى: (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يونس:89،

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم؛ ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله، واستغاثوا به، وتضرعوا لديه ، واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا، كما قال تعالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)!

- **ومن المخارج: وعظ الناس، ونصيحتهم، وعدم تركهم مهما طغوا:**

يقول عز شأنه: (وإذ قالت أمة منهم: لم تعظون قوما الله مهلكهم، أو معذبهم عذابًا شديدًا؟ قالوا: معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتقون* فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس؛ بما كانوا يفسقون* فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين) الأعراف:164–166.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيرها: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا)؟

أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم. قالت لهم المنكرة: (معذرة إلى ربكم) أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

(ولعلهم يتقون) يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم!

(فلما نسوا ما ذكروا به) أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة (أنجينا الذين ينهون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا) أي: ارتكبوا المعصية (بعذاب بئيس) فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا!

- ومن المخارج: تقوى الله تبارك وتعالى:
- يقول عز وجل: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) الأعراف:96.

- ومن المخارج: الإكثار من صنائع المعروف:

وسبب ذلك أنها دافعة للأسباب، جالبة لرضا رب الأرباب تبارك وتعالى؛ ففي الجامع الصغير بسند صحيح عن سيدي أنس بن مالك رضي الله عنها مرفوعا: (صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ والآفاتِ والهلكاتِ، وأهلُ المعروفِ في الدنيا همْ أهلُ المعروفِ في الآخرةِ) ونصه عن سيدتي أم سلمة وغيرها رضي الله عنهم، كما في صحيح الترغيب وغيره، مرفوعًا:
(صنائعُ المعروفِ تَقِي مصارعَ السُّوءِ، والصدَقةُ خِفْيًا تُطفِيءُ غضبَ الرَّبِّ، وصِلةُ الرَّحِمِ تَزيدُ في العُمرِ، و كلُّ معروفٍ صدقةٌ ، وأهلُ المعروفِ في الدُّنيا هُم أهلُ المعروفِ في الآخِرةِ)!

- **ومن المخارج: التعجيل بتصحيح المسار، والرجعى لله تعالى:**

يقول سبحانه وتعالى في سورة النساء: 66–70: (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم، وأشد تثبيتًا* وإذا لآتيناهم من لدنا أجرًا عظيمًا* ولهديناهم صراطا مستقيمًا* ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم: من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً* ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا) وعلى العبد المبتلى أن يسارع بالأوبة، ولسان حاله يحتف في انكسار، وضراعة: (وعجلت إليك رب؛ لترضى) طه:84.

وقال تعالى جده: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ؛ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ؛ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) الروم:43.

- **الانخلاع من الأسباب الجالبة للهلاك كما ورد من قبل:**

وذلك كالطبقية البغيضة، والشذوذ المقيت، والظلم، والبغي، والسلوك المستكبر كالبطر والسرف والكبر، والاستباحة المالية كالبيوع المحرمة والربا، وغيرها؛ كما قال تعالى للصحابة: (فهل أنتم منتهون) فبادر عمر رضي الله تعالى عنه: انتهينا.., انتهينا.. كما في مسند أحمد وغيره.

هذا ما تيسر لي جمعه، وتأمله، واستخلاص عبره؛ سائلاً ربي تبارك وتعالى أن ينفع به، وأن يتجاوز عن تقصيري فيه وخطئي، ويرزقني وإياكم الإخلاص، وصدق النية، وبالله الاستعانة، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنارسول الله وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين..

وكتبها عبد السلام البسيوني